مشكلة دواوين الشعراء العباسيين

«دراسة في كتابات الدكتور علي الزبيدي»

الباحثة/ هبة عادل مهدي جبر العلوي

جامعة دجلة الأهلية – قسم اللغة العربية

إشراف

أ.م.د. صلاح كاظم هادي العبيدي

جامعة بغداد – كلية التربية للبنات

www.mercj.journals.ekb.eg

الملخص:

عرض الدكتور الزبيدي في مؤلفه (دواوين الشعر العباسي) موضوعًا مهمًّا ألا وهو (ضياع الدواوين)، بوصفها مشكلة خطيرة ألمّت بتراثنا الأدبي ـ قلما انتبه إليها النقاد ـ محاولًا بكل إصرار متابعتها، فتوصل إلى نتيجة مفادها أنّ كثيرًا من تلك الدواوين أصابها الضياع والاندثار! لذا عمل على وفق منهجية علمية للكشف عن أسباب ضياع الدواوين، وقدم الدكتور الزبيدي الأفكار والأدلة بالشواهد والروايات، والفرائن المنطقية على عملية الهدم، والضياع التي عانت منها دواوين الشعراء العباسيين.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها العلماء بالجمع والتحقيق، وفضلا عن حركات الجمع المنهجي التي تعطي تصورًا حول نتاج ضخم يحصى بآلآف الدواوين مستندين في ذلك على كتب الفهارس التي وصلت إلينا، ومن ضمنها كتاب الفهرست لابن النديم الذي يحوي أسماء آلآف الشعراء من الحقبة العباسية فإن الدكتور الزبيدي خرج بنتيجة مؤداها أنّ مكتباتنا العربية لا تشتمل إلّا على جزء يسير من هذه الدواوين.

لذا قام الدكتور الزبيدي بسبر أغوار هذا الموضوع، محاولا الكشف عن أسباب ضياعها معتمدًا أدلة أثبت بها دعواه تلك سواء أكانت منقولة عن كتب النقاد القدامى، أم مستنبطة من بنات أفكاره، ومما استنتجه أن قسمًا غير قليل من هذه الأشعار قد خضعت لعوامل كثيرة كانت سببًا في طمسها كالسياسية، والخلافات المذهبية، والطبيعية، والشخصية، والفنية، والنقدية، والزمنية والجغرافية.

Abstract:

In his book "The Abbasid Poetry", Dr. Zubaidi presented an important topic, "The loss of the Dawaween", as a serious problem that has plagued our literary heritage, which is rarely noticed by the critics, with his insistence of following them, which leads to the conclusion that many of them were lost and lost! Therefore, he worked according to scientific methodology to uncover the causes of loss of debts. Dr. Al-Zubaidi presented the ideas and evidence in the testimonies and narratives, and logical reasons for the demolition and loss suffered by the Abbasid poets' libraries.

In spite of the efforts that have been made by scientists to collect and investigate, as well as the systematic collection movements that give a vision of a huge product counting thousands of documents based on the books of indexes that have reached us, including the book of the index of Ibn Nadim, which contains the names of thousands of poets from the Abbasid era, Dr. Al-Zubaidi came out with the conclusion that our Arabic libraries contain only a small part of these departments.

Therefore, Dr. Zubaidi probed this subject, trying to disclose the causes of loss, relying on an evidences to prove his claim, whether copied from the books of ancient critics, or derived from the blocks of his ideas, and it was concluded that a large number of these poems have been subjected to many factors were the cause In its blurring as political, doctrinal, natural, personal, artistic, monetary, temporal and geographical differences.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين الذي وهبنا العلم وجعله نورًا نهتدي به... وبعد...

نعرض هذا البحث إلى كل مهتم بالأدب العربي وحريص على حمايته من الضياع والتبعثر بالعودة إلى كتاب من تأليف الدكتور علي الزبيدي وعنوانه (دواوين الشعر العباسي) الذي تطرق فيه لقضية ضياع الدواوين العباسية التي أولاها أهمية كبيرة، وحث الباحثين على إكمال الخوض في حيثياتها واستجلاء خفاياها وصولًا للهدف الأسمى وهو الحفاظ على أدبنا وتراثنا الحضاري.

عنوان البحث:

مشكلة دواوين الشعراء العباسيين، دراسة في كتابات الدكتور علي الزبيدي.

أهداف البحث:

التعريف بأهمية التدوين في حفظ التراث وحمايته من الضياع وتوضيح أهمية الكتابة في تغذية العقول بالمعارف والآداب والثقافات عبر العصور، وإمكانية البحث عن الضائع من الدواوين والأشعار لأهميتها في إثراء الفكر الأدبي والبحث عن المتحقق من حركة التأليف ومتابعة التطور في مجال النقد الأدبي ومتابعة المُحقق من دواوين المحدثين والتعرف على سيرهم ومصنفاتهم الشعرية، وتعريف المعنيين بالبحث بالعوامل التي أسهمت في ضياع تلك الدواوين والآثار الأدبية المهمة، عسى أن تكون تلك الدراسة فاتحة خير وبركة للخوض في دراسات مشابهة لها مستقبلًا.

منهج البحث:

أتبعت الباحثة المنهج التاريخي للاستناد إلى الوثائق في استنباط الأحكام الخاصة بالموضوع، واعتماد النقد التاريخي الذي يعنى بتحليل كتابات الدكتور الزبيدي ودعم آرائه في الضياع بالأدلة المؤيدة لذلك.

الدراسات السابقة: لا توجد دراسات سابقة عن الموضوع.

مضمون البحث:

مشكلة دواوين الشعراء العباسيين

دراسة في كتابات الدكتور علي الزبيدي(*)

أكد الكثير من الباحثين قديمًا وحديثًا على أهمية الكتابة؛ وذلك لدورها الكبير في حفظ التراث من النسيان أو حمايته من الضياع، يقول الجاحظ: ((أما الخط أو الكتابة، فهو وسيلة التبين في الكتب، ونقل المعرفة عبر الزمان والمكان ولولاه لاندثر العلم، ومن ثم كانت أهمية الكتب وأفضليتها؛ لأن الكتاب يُدرّس في كل زمان ومكان بينما لا يعدو اللسان سامعه))[١]. فغدت الكتابة الشريان الذي يغذي العقول بمختلف الثقافات والآداب والعلوم على مر العصور وخاصة في العصر العباسي؛ حيث كانت كل الجهود تصب في بوتقة واحدة أساسها النهضة العلمية والثقافية الواسعة؛ إذ ((لم يلبث الفضل بن يحيى البرمكي أن أنشأ في عهد الرشيد مصنعًا ببغداد للورق، ففشت الكتابة فيه))[٢]، وكان لذلك فوائده الكبيرة المتمثلة: باتساع صناعة الورق من جهة وقيام عدد كبير من الشعراء بتدوين أشعارهم بأنفسهم أو تكليف الآخرين بذلك، غايتهم الأولى والأخيرة الحفاظ على النتاج الأدبي ((فصار شعراء المدن يدونون أشعارهم واقتدى بهم شعراء البوادي، فركنوا إلى كتابة أشعارهم بأنفسهم أو كلفوا بكتابتها بعض الرواة والنساخ المحترفين))[٣]، وتتجلى أهمية ذلك الإنجاز الفكري بازدياد أعداد الكتب وجمعها وتأسيس المكتبات وازدياد أعداد الخزانات؛ إذ انصب((اهتمام الخلفاء منذ وقت

مبكر بتأسيسها وإثرائها من ثمرات حركة التدوين ومن عوامل تشجيعها وتنشيطها في الوقت نفسه، وقد قامت هذه الخزائن بأدوار فعالة في حفظ الشعر وتدوينه وزيادة عدد نسخ دفاتره ودواوينه المتداولة))[٤] فاتجه النساخون والوراقون وغيرهم بالتوسع في عمليات تدوين الشعر. يقول الدكتور الزبيدي: ((إن حركة تدوين الدواوين وترتيبها وتصنيفها وتوثيقها بدأت نشاطها في أواسط القرن الثاني للهجرة، وركزت آنذاك في جمع الشعر الجاهلي والإسلامي، حتى إذا توسط القرن الثالث اتجهت هذه الحركة إلى تدوين دواوين المحدثين مستفيدة مما حققته حركة التأليف من تقدم، وما طرأ على حياة الأدب والنقد من تطور ونضج))[٥] مما جعل الرواة والمعنيين بحفظها يبحثون عن أساليب وبرامج يتبعونها في عمليات جمع الأشعار والدواوين لغرض تصنيف الشعراء وتقييم نتاجاتهم وإعداد تراجم خاصة بهم وفق منهج علمي[٦].

وسعى الدكتور الزبيدي لتقديم ما يقنع الدارس من أدلة وإثباتات بصحة وجهة نظره، ولعل أكبر دليل على ذلك الإشارات الكثيرة إلى دواوين الشعراء في طبقات ابن المعتز والقوائم الطويلة لدواوين الشعراء في كتاب الفهرست لابن النديم، أضف إلى هذا ((أن كبار اللغويين والأدباء الذين عاشوا في النصف الأول من القرن الثالث الهجري كانوا يقومون بشرح دواوين كبار الشعراء، كما فعل ابن السكيت وأبو سعيد السكري وأبو هفان وأبو العباس المبرد وعمر بن شبّة وغيرهم))[٧].

وعمل الدكتور الزبيدي على وفق منهج علمي دقيق واعتمد الأدلة المنطقية وصولًا لاستنتاجات صائبة. فقد سار على منهج بلاشير استاذه في السوربون، ولاسيما في كتابه تاريخ الأدب العربي الذي ذكر فيه أن المدونين ((وتلامذتهم وكتابهم ووراقيهم يؤلفون فريقًا نشطًا يقود حركة جمع الشعر))[٨]، وواصل الدكتور الزبيدي بحثه للتأكد من صحة تلك المعلومة كدليل على كثرة التدوين والجمع آنذاك، أي مع انتهاء القرن الثاني للهجرة وأوائل القرن الثالث وأواسطه ضاربًا الشواهد للاستدلال على ذلك إذ ((انبرى الرواة ومحبو الشعر والوراقون إلى العناية بشعر الجيل الأول من كبار

الشعراء من طبقة بشار حتى جمعوا كل ما استطاعوا التوصل إليه من شعر ووضعوا له ديوانًا))[٩] وأوج ما وصلت إليه حركات تسجيل الشعر كان في القرن الثالث الهجري بدافع تراكم الانتاج الشعري الذي تركه شعراء القرن الثاني الكبار منهم والصغار لاختفائهم أواخر هذا القرن وخلال العقود الأولى من المئة الثالثة، ولرغبة الناس والأوساط المهتمة بالأدب والاهتمام بموضوعات الشعر المولد الجديد ومعانيه وأساليبه فنتج عنه ازدياد دفاتر الشعر، وأصبحت في عناية الأدباء والوراقين وجميع الناس[١٠]، فتضخم الإنتاج إذا ما قيس بالعصور السابقة فتوصل الدكتور الزبيدي إلى أن تدوين الشعر في العصر العباسي مرّ بمراحل متعددة ((الأولى: بدأت منذ أوائل القرن الثالث واشتدت في أواسطه، فاتجهت إلى جمع دواوين الشعراء المحدثين، ولاسيما مشاهير القرن الثاني، وأوائل الثالث أو العصر العباسي الأول كما سميناه... والمرحلة الثانية: تميزت بظهور دواوين وشروح دواوين ومختارات أو اختيارات... وكان من نتائج هاتين المرحلتين... ظهور مساوئ السرعة في العمل، كتفشي أخطاء وتصحيفات وعيوب أخرى كثيرة... أما المرحلة الثالثة:... فهي مرحلة ارتقاء واستقرارها طرق تدوين الشعر... متمثلة في نشاط الصولي وإضرابه... ومن أبرز معالم هذه المرحلة أيضًا ظهور أو تبلور النقد التاريخي الذي يعنى بغربلة النصوص وتوثيقها لتثبيت الصحيح وإسقاط المنحول))[١١].

وإذا تتبعنا القرنين الرابع والخامس الهجريين نجد أنهما استمرار للعناية بتدوين تلك الدواوين ويتمثل بما أطلقه الثعالبي من وصف على شعراء ذلك العصر واستمراره بتصنيف أشعارهم ونقدها وبيان مواطن القوة والضعف فيها[١٢]. وجلب هذا الموضوع انتباه الباحثين حتى قال أحدهم: ((لم تتوقف حركة صنع الدواوين بل اتخذت خلال المائة الخامسة شكلًا جديدًا، هو ان يصدر الشاعر أكثر من ديوان له، وكل ديوان يضم جملة من قصائده ويحمل عنوانًا معينًا ومحددًا، وقد كان أبو العلاء المعري أبرز مَن اتجهوا نحو تلك الوجهة الجديدة حين أصدر ديوانيه: سقط الزند

ولزوم ما لا يلزم))[١٣]. وذلك يوضح بشكل جلي حال الدواوين وما آلت إليه المنهجية المتبعة في صناعتها.

وخرج الدكتور الزبيدي برأي آخر لا يقل أهمية عن استنتاجاته السابقة حول صناعة الدواوين؛ فحاولنا جاهدين أن نلملم شتات تلك الآراء من مصادرها، فتوصلنا لرؤيته التي تنصب: ببعد تلك الدواوين عن روح الحرص المنهجي والأمانة العلمية، وان الهدف هو جمع المال الذي يسعى إليه الأدباء والوراقين وغيرهم الذين باعوا أخلاق المهنة وسلامة سمعتهم مقابل حفنة من الدنانير، وتتمثل أفعالهم بوضع شعر شاعر معين في ديوان غيره أو إهمال قسم من شعره، أو إضافة أشعار لا تعود إليه[١٤]. ونتج ذلك لعدم وجود خطة يلتزم بها الرواة، تتصف بالوضوح على وفق مراحل محددة يلتزمون بها[١٥]. فظل المنهج ضعيفًا ولم يصل إلى مرحلة النضج والاكتمال ولم يتطور إلا في القرون اللاحقة، حيث تم ((إدخال شيء من الترتيب والتوثيق المنهجي والنقد والشرح في عمليات جمع الشعر القديم، فتبلور على أيديهم منهج ما، واتجه بعضهم أو فريق منهم إلى الشعراء المحدثين ملتزمًا بالمنهج نفسه))[١٦]، المهم أن هذه الحركة (حركة الجمع المنهجي) لا بد أن تقدم خدمة كبيرة لتاريخ الأدب في إظهار الفروق والاختلافات وتثبيت الصحيح وإزالة الخاطيء[١٧]، إضافة لتطور أساليب التبويب والتصنيف فصارت أكثر منهجية وتنظيمًا بفضل جهود مجموعة العلماء والأدباء وكان الصولي في مقدمتهم[١٨].

وشمل التطور نواحٍ أخرى جعلت الأجيال تفتخر بما قُدم للبشرية، كأساليب جمع القصائد وفق الترتيب الأبجدي، وتصنيف الدواوين بحسب الأغراض الشعرية من مدح وهجاء وغزل وغيرها...[١٩] وتوصل الدكتور الزبيدي بأن هذه الطريقة ((تُسهل المراجعة والانتقاء والاستشهاد بالأشعار المختارة في وسائل النقد والبلاغة، ومصنفات الأدب العام وأهم مساوئ هذه الطريقة إهمال الملاحظات والإشارات التي تحدد تواريخ نظم القصيدة والقطعة والبيت والظروف والملابسات والأحداث التي أحاطت بالشاعر ودفعته إلى

النظم))[٢٠] وأكدت الكثير من المصادر إضافة لرأي الدكتور الزبيدي على أن الصولي هو أول مَن سار على نهجها وطبقها[٢١]. ومع شدة الاهتمام بالتدوين والتصنيف ومع وجود وسائل لدى العرب الأوائل ساعدتهم على حفظ الشعر، فإن عوامل وتقلبات حدثت سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو طبيعية أو شخصية، سببت ضياع جزء كبير من هذا التراث الثر ((الذي لو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير))[٢٢].

خاض الدكتور الزبيدي طويلًا فيما أسماه (مشكلة الدواوين العباسية)، فعمد برحلته هذه إلى جرد كتاب الفهرست لابن النديم وغيره فوجدها حاوية آلاف الأسماء العائدة لشعراء الحقبة العباسية، وعندما أحصى الدواوين المحققة والموجودة في المكتبات والتي ثبت ظهورها ووصولها إلينا، توصّل إلى نتيجة مُذهلة، حيث إن عددها أقل بكثر مما توقعه!! ويؤكد القول ((إن ثمرات جهود أولئك وهؤلاء ظهور تلك الأعداد الكبيرة من دواوين المحدثين وتداولها... حتى تسنى لابن الحاجب وابن النديم وغيرهما من مصنفي الفهارس أن يذكروا المئات منها بأسماء أصحابها وعدد أوراقها، فتهيأت بذلك المادة الأولية اللازمة للمصنفات الشعرية والسيرية والأدبية العامة والخاصة وللدراسات النقدية... نجدهما فيما تبقى من كتب ابن المعتز وابن قتيبة والمبرد ومحمد بن عمران والمرزباني والصولي وأبي الفرج والآمدي وغيرهم من مصنفي القرنين الثالث والرابع ومن مؤلفي العصور الآتية))[٢٣]. فلنا الحق أن نتساءل بعد هذا، أين ذهبت كل تلك الدواوين التي قيل عنها أنها كثيرة جدًا فيها أشعار وأخبار رويت عن الأقدمين؟ هل ضاعت حقًا؟

وحاول الدكتور الزبيدي ببصيرته النافذة أن يرجع أسباب ضياع الدواوين إلى عوامل وأسباب عديدة منها ما استقاه عن آراء غيره فأورد دليلًا جاء به الاستاذ عبد الستار فراج من قبله يقول فيه ((ليست الدواوين كلها جمعًا من كتب متعددة، وليست كلها متشافهة من رواة مختلفين، فقسم من الدواوين العباسية دوّن في عصر الشاعر، وبعضها كُتب بخطه، أو بخط غلمان كُتاب، أو أصدقاء... كتبوها تحت إشرافه أو

إشراف أبنائه أو رواته، وبعضها جُمع بعد عصره بقليل، كما حدث لدواوين أبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن الرومي وغيرهم مما عمله الصولي في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع، ومنها ما دوَّن بعد ذلك اعتمادًا على نسخ أقدم فجاء ناقصًا أو مزيدًا))[٢٤]. فكان الدكتور الزبيدي يرى أن لا يتخلف والآخرون عن الكشف والتحري عن ذلك الضياع فيقول: ((نحن لا نملك من الدواوين ودفاتر الشعراء إلا القليل وجمعنا يستهدف ما تناثر وتبعثر لسد النقص وتعويض الخسارة))[٢٥] ودفعتهم حميتهم على أدبهم بعد أن لاحظوا أن المستشرقين أبدوا اهتمامهم بالشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي وشعرائه[٢٦]، فهم لا يقلون عنهم خبرة وقدرة في دراسة أدبهم العربي.

وتوصل الدكتور الزبيدي إلى عوامل أخرى مهمة، فنراه يقول: ((أما القدماء فكان أكثر الدواوين ودفاتر الشعر متوافرة تحت أيديهم أو موجودة في خزائن الكتب الكبيرة... يختارون منها ما يعجبون به ويتذوقونه ويعتقدون أنه الغرر الجميلة والنماذج الجديرة بالحفظ والتداول))[٢٧]. وصرّح ابن طباطبا من قبل بأن الأشعار تختلف وأن اختيار الناس لها يقوم على منحى خاص يلائم أذواقهم فنراه يقول: ((والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه متشابه الجملة متفاوت التفصيل، مختلف كاختلاف الناس في صورهم وأصواتهم وعقولهم وحظوظهم... كذلك الأشعار هي متفاضلة في الحسن على تساويها في الجنس ومواقعها في اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم واختيارهم لما يستحسنونه منها ولكل اختيار يؤثره وهوىً يتبعه وبغيه لا تستبدل بها ولا يؤثر عليها))[٢٨]. فاختيار الشعراء لبعض الأشعار دون الأخرى أدى إلى اندثار الكثير منها، ويذكرنا ذلك بصنيع الأصمعي عند اختياره بعض الأبيات معتمدًا على ذوقه الشخصي في جمعها وترتيبها بمجموعة أطلق عليها (الأصمعيات) وكذلك الحال مع (المفضليات) وغيرها. وأن تدوين الشعر والاختيار منه انعكس كما يرى الدكتور الزبيدي على طرائق نقده وشرحه[٢٩] فكثرت نتيجة لذلك ((المصنفات التي تحمل

اسم (المختار) من شعر فلان أو (اختيار) شعر فلان منـــذ أواســط القرن الثالث الهجري))[٣٠] ولم يبق منها إلا النزر القليل بسبــب صروف الدهر.

وقد عمد الدكتور الزبيدي إلى ذكر دليل مهم وبيّن ألا وهو فهرست ابن النديم الذي ذكر فيه ((٤٤٩ ديوانًا لشعراء العصرين العباسيين الأولين ولجزء صغير من العصر الثالث... في حين أن العدد المطبوع المتوافر لدينا لا يصل إلى الثلاثين ديوانًا وليس في خزانات الكتب المعروفة من مخطوطات تلك الدواوين ما يقارب عدد المطبوع))[٣١]. ويمكننا القول إن التقلبات السياسية والاجتماعية والطبيعية أثرت سلبًا على حفظ الأدب العربي وكانت سببًا في ضياع الجزء الأعظم منه، مما سبب باقتطاع جزء مهم من تاريخ الأدب العباسي ووصفت بانها هوة عميقة في تاريخ التدوين، لذا يستحيل الالمام بالكم الهائل من نتاج الشعراء العباسيين[٣٢]. وهذه مشكلة حقيقية يجب الانتباه إليها وعدم إهمالها والعناية بالبحث عنها ومن أهمها (العامل السياسي) متمثلًا بديوان بشار ((فبعد سقوط الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية سنة ١٣٢هـ من المحتمل أن بشارًا أسقط شيئًا مما قاله في مدح الأمويين وولاتهم، وأبقى ما لا يثير له المتاعب مع العباسيين وفي عهد المنصور تورط بتأييد الثورة العلوية في البصرة ونظم قصائد في امتداح قاداتها... ويدل على ذلك اضطراب قصيدته الميمية المشهورة وقيامه هو نفسه بمراجعتها وتغيير بعض ألفاظها وربما حذف بعضًا من أبياتها))[٣٣]، فهذا تأثير التقلب السياسي في الشعر يؤدي إلى اندثار بعض الأشعار التي تختلف وأفكار الدولة الجديدة. وانتقل الدكتور الزبيدي إلى عامل آخر هو (العامل المذهبي) الذي لم يطمس الدواوين الشعرية فحسب، بل وصل الأمر في ظل هذا العامل العقدي إلى إهمال بعض الآثار الأدبية.

ولو تتبعنا هذا المسـار لاتضح لنا أن تركيـز الدكتور الزبيدي ينصـب على مذهـب المعتزلة بقوله: ((لقد تضافرت الأسباب الأخرى لتوسيع حجم الضياع في شعر بشار، وفي طليعة هذه الأسباب خلافه مع المعتزلة مطلع شبابه ونجاحهم في

نفيه من البصرة قبل وفاة واصل بن عطاء سنة ١٣١هـ بسنوات... ومن شأن هذا النفي والتنقل والتشرد أن يضيع الشعر وقد تكرر هذا النفي بعد وفاة واصل))[٣٤]. ولعل ضياع قسم من ديوان أبي نواس مرتبط بوضعه فقد ((كان ماجنًا سكيرًا... زد على هذا ان كثيرًا من شعره يدل على استهتاره بالدين واستخفافه بالفقهاء والعلماء))[٣٥]، ألا تكفي هذه الإشارات إلى جعل العامل الديني أحد أسباب ضياع واندثار الكثير من الأشعار؟ فأُتلِف ما يعارض مبادئ الإسلام الحنيف، وأُتلِف كذلك ما يتعلق بالزندقة، فضياع الشعر كان مرتبطًا ((بتخوف الشاعر نفسه أو رواته وأصحابه من حفظ هذا الشعر كما أن الاتهام بالزندقة يقلل اعتناء الرواة بديوانه علنًا وخوفًا من غضب السلطان واستنكار الناس ووشاياتهم، وقد ضاع أكثر شعر صالح عبد القدوس لهذا السبب لاتهامه بالزندقة))[٣٦]. راح الدكتور الزبيدي يبحث عن تأثير الزمن والتغيير الجغرافي باستناده إلى كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني والكامل للمبرد وغيرهما ليجد أن عامل الزمن له أثره في عدم الإحاطة بالأشعار جميعها كما في أشعار أبي تمام[٣٧]، وحدث ذلك مع أشعار بشار وغيره من الشعراء المخضرمين ((فكلما قرب عهد الشاعر كان ديوانه أيسر على الجامعين))[٣٨] وعندما كان الصراع شديدًا بين أنصار الجديد وأنصار القديم، قدّم ابن قتيبة أسماء لشعراء على وفق معاييره مما صرف المدونين عن غيرهم بانتظار ما يستقر عليه الذوق العام بشأن الشعر الجديد، إلا أن تعصب فريق من رواة الشعر القديم أخذوا بذم الشعراء المحدثين وشعرهم[٣٩]، وفي قول للأصمعي أن ((بشار خاتمة الشعراء، والله لولا أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم))[٤٠] رافق ذلك عدم العناية النقدية بهذا الشعر، بل نكرانه لذلك انصرف الناس عنه وضاع قسم منه تحت ذلك التأثير.

أما العوامل الجغرافية فللدكتور الزبيدي رأيه إذ يقول: ((إن بعض الشعراء كانوا على درجة عالية من الإجادة، لكنهم لم يلفتوا نظر النقاد... فاكتفى كُتاب التراجم بذكرهم في المصنفات التي خصوا بها أعيان منطقتهم... ومن جهة أخرى تقلصت وضاقت

شهرة عدد من الشعراء لبُعد المسافة أو لافتقار المنطقة إلى النقد والنقاد البارزين... فضعفت العناية بتداول شعرهم أو زواله))[٤١]. وحديث الدكتور الزبيدي عن ظرفي الزمان والمكان جعلنا نتنبه إلى موضوع (الظرف الثالث) الذي غفل عنه الكثيرون والمتمثل بالتغيرات الاجتماعية والنفسية المرتبطة بتغيرات زمنية ترافقها ظروف سياسية أو حركة الحضارة والمدنية، وذكّر الدكتور الزبيدي بدراسة كل ما يحيط بحياة الشاعر والتأكيد على دراسة مؤثرات لا تنحصر في نقطة ثابتة من الزمان والمكان، بل بتفاعلها مع أحداث الزمن المتحرك أو التاريخ الواسع، وما لها من علاقة بضياع الدواوين فمرحلة التوثيق في العصر العباسي شهدت قيام فئة من العلماء من أهل اللغة والنحو والحديث والتفسير والأدب بطمس معالم قسم كبير من شعر المولدين والمحدثين وخصوصًا ما كان يثير سخطهم لعدم ملائمته وأعرافنا الدينية والاجتماعية كشعر الملحدين والزنادقة والمجان المتطرفين والأعداء السياسيين[٤٢].

وفي العودة إلى العامل الاجتماعي وما يفرضه على الشاعر بانقياده إلى (الذوق الجمعي)، ويؤدي بالتالي إلى ضياع وإهمال الشعر غير المرغوب فيه ((وإهمال شعر صغار الشعراء وفقدان الكثير من دواوينهم))[٤٣]، وللعوامل النفسية والضغوط والخصومات التي يعيشها الشاعر أثرها في دفعهم لإتلاف أشعارهم كما فعل أبي نواس الذي أحرق أشعاره قبل وفاته[٤٤].

وتعرض بعض الشعراء لضغوط مختلفة قد يكون عامل الغيرة والحسد أحدها أو إهماله لشعره وعدم عنايته به ((فأبا تمام لم يعن بحفظ كل ما نظمه من شعر وكان لتنقله المستمر وكثرة أسفاره وعدم استقراره مدة طويلة في موطن واحد في طليعة الدوافع التي دفعته إلى الإهمال أو عرّضت قسمًا من مدوناته للضياع... وربما تعمد اتلاف بعضه كما فعل كثير من الشعراء بشعرهم المبكر، أو أنه لم يشأ الاحتفاظ به))[٤٥] ويذكرنا بفعل التوحيدي حين قال: ((ومما شحذ العزم على ذلك رفع الحجاب عنه أني فقدت ولدًا نجيبًا وصديقًا حبيبًا وصاحبًا قريبًا وتابعًا أديبًا ورئيسًا منيبًا فشّق

عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها))[٤٦] ولوى العنان عن ناصية الأدب وأحرق في ساعة غضب جميع كتبه، فالملاحظ أن هناك انعكاسات سلبية لهذا العامل الشخصي على أدب المرحلة بضياعه أو إتلافه!

وراح الدكتور الزبيدي يجوب المكتبات للبحث عن أسباب أخرى أدت إلى ما أصاب الدواوين من إهمال أدى به إلى الفناء والاندراس، فتوصل إلى استنتاج بأن لرأي النقاد أثره، حيث إن ((النقد القديم حصر نفسه في مسارات معينة، فنتج عن ذلك اهمال عدد من الشعراء، وضروب من الأغراض والفنون الشعرية، انعكس هذا على عمليات الجمع والتدوين والحفظ... وإعراض الوراقين وتجار الكتب وغيرهم عن هذه الألوان فانتهى ذلك إلى ضياع عدد كبير من الدواوين والقطع والأشعار))[٤٧]. وخاض الدكتور الزبيدي في قضية (التصفية النقدية)، فالحكم على الأشعار بالرداءة أو السرقة أو الإغارة أو أي عيب آخر، يؤدي إلى إهمالها نتيجة لذلك الحكم وتختفي في ظلام النسيان. أما بعض النقاد فان إعجابهم بشخصية شاعر معين ولعصبيتهم الشديدة في رد آراء الخصوم عنهم عمدوا إلى إسقاط بعض أشعارهم لا بسبب شكهم بصحتها بل لاعتقادهم أنها أشعار رديئة أو مرذولة قد يستفيد منها الخصوم للحط من منزلة صاحبها والنيل منه[٤٨]، وهذا ما دفع الناس إلى الإعراض عنه فكان ذلك سببًا في إهماله وتناسيه.

ونقلت لنا المظان الأدبية والنقدية اسهامات النقاد فى كون النقد ((ليس فنًا مقصودًا لذاته وتأثير الناقد سرعان ما يتجاوز دائرة النقد نفسه ليفعل أفعاله السلبية والإيجابية ويترك آثاره في الأوساط الأدبية والتاريخية))[٤٩] فأطلق الدكتور الزبيدي ما أسماه: بعمليات التصفية النقدية التي تقتضي انتخاب بعض الأشعار وطرح البعض الآخر مستندين لفكرة تقسيم الطبقات التي لجأ إليها بعض النقاد، ثم ظهرت طرق أخرى تمثلت بمنهج جغرافي أو إقليمي باعتماد شعراء معينين كما فعل الباخرزي والحظري

والعماد الأصبهاني، ثم ظهر التصنيف الأبجدي عند المرزباني، واستمر تغيير المناهج ولم يؤثر ذلك على عملية استقطاب النقاد لبعض الأشعار من دون غيرها(٥٠).

ومن ضروب التصفية الأخرى، اختيار النقاد للأشعار على وفق منزلة الشاعر ومكانته الشعرية فضاعت الأشعار التي وسمت بانها ضعيفة أو مأخوذة أو منتحلة..إلخ، فحرّضت الأوساط الأدبية على إهمالها وعدم الاكتراث لها، وشمل كثيرًا من الشعراء، فضاعت دواوينهم أمثال البطين وابن أبي البغل وفائق بن الخبازة والبيدق ومطيع بن أياس وغيرهم الكثيرين(٥١)، وبهذا فإن ((أجهزة النقد الأدبي القديم قامت بما يشبه عمليات الغربلة والتصفية التي لها تأثير واضح في حياة التراث الشعري، فانتهت إلى تسليط الضوء على عدد من الشعراء الكبار وإلى حجب الأضواء عن أعداد غفيرة من الشعراء الآخرين))(٥٢)،

ونعتقد أن أعدادًا كبيرة من الدواوين الشعرية والنصوص النثرية قد ضاعت أو أهملت ولم يبقَ إلا الشعر الجيد ممثلًا بدواوين المجيدين فقط ((فالنقد يفرض سلطانه على الحياة الأدبية وتاريخها فيُبقي أو يُخلد ما يراه أهلًا للبقاء والخلود ويطرح في ظلام النسيان والإهمال الشعراء والكُتاب الذين يحكم على شعرهم بالرداءة والضعف))(٥٣). ولم ينتهِ الموضوع لهذا الحد عند الدكتور الزبيدي، بل دعا وبشكل صريح إلى ((إمعان النظر في كل ديوان مطبوع أو محفوظ وتوثيق الشعر الوارد فيه جملة وتفصيلًا، ثم جمع مواد النقد المتجمعة من دواوين عدة لاستخراج النتائج العامة،... فكشفوا عن كثير من مواطن الضعف التي تهم النقد التاريخي وعلم تحقيق النصوص، وذكروها في المقدمات أو أشاروا إليها في الحواشي))(٥٤). وهكذا نلاحظ ان هناك محاولات جيدة للخروج بنتيجة تصب في مصلحة الدارس والباحث وتمنع ضياع الأدب القيم من تراث أمتنا. ورسم الدكتور الزبيدي الخطى لمن يأتي بعده لتكون عونًا للباحثين وتنير لهم الطريق بإحصائه جداول كثيرة عن الشعراء وأسمائهم ودواوينهم، وخلص في نهاية مشواره العلمي ((إلى الرأي الراجح في ضياع دواوين الشعر والمصنفات هو الذي حرمنا من العثور على نصوص نجد فيها ما نبتغي، ولعل

اكتشاف ما فقد منها أو بعضه ونشره في المستقبل كفيل بإزاحة الظلام المخيم على الحياة الأدبية))[٥٥]، لذا أوصانا مِرارًا إلى عدم التقاعس في البحث رغم تلك الصعوبات وأن لا نقتنع بالقليل الموجود؛ لأن المفقود أكثر[٥٦]، صحيح أن هناك ازدهارًا حضاريًّا وثقافيًّا، وأن هناك ارتقاء في حركة التأليف والتدوين، فلا عبرة بالزيادة والكم الكبير؛ لأن عوامل الضياع كانت أقوى من عوامل البقاء[٥٧]. وهكذا فان دراسة الدكتور الزبيدي قد كانت فاتحة خير وبركة، إذ انغمرت فيها تلك المحن التي دارت رحاها حول إرث أدبي استمر لعصور طويلة كانت نهايته أن طواه الزمن بين ثنايا جنباته ليختفي عن الوجود.

نتائج البحث:

وفي ختام هذا البحث لا بد لي أن أستجلي جهود الدكتور الزبيدي المتمثلة بكتابه (دواوين الشعر العباسي) والوقوف عند مشكلة ضياع القسم الأكبر من شعر العصر العباسي واختفائه عن الوجود، والذي ارجعها الى أسباب عدة منها:

١- البعد الزمني الذى أحاط بالقليل دون الكثير من نتاج الشعراء العباسيين.
٢- التقلبات السياسية والدينية والطبيعية التي أثرت سلبًا على حفظ الادب العربي وكانت سببًا في ضياع الجزء الأعظم منه.
٣- الذوق الجمعي وأثره في ضياع وإهمال الشعر غير المرغوب فيه فضًلا عن العوامل النفسية والخصومات التي يعيشها الشاعر مع أقرانه.
٤- عامل التصفية النقدية من خلال الحكم على الاشعار بالرداءة أو السرقة مما يؤدي إلى إهمالها وعدم الاكتراث لها.

middle-east2017journal.com M.E.R.C ISSN 2536-9504

الهوامش

- علي أحمد رحيم الزبيدي ولد في بغداد محلة الفضل عام ١٩٢٤م، وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية فيها، دخل دار المعلمين العالية وحصل على الليسانس في الآداب، انتدب إلى فرنسا عام ١٩٤٨م ودرس في جامعة السوربون وحصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٥٥م عمل أستاذًا في كليــة الآداب في جامعة بغداد وتوفي سنة ٢٠٠٣/٧/٢٨م.

١. البيان والتبيين:١/١١.
٢. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول):.١٠٣
٣. دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١٠١.
٤. المرجع نفسه:١٥٥.
٥. ينظر: المرجع نفسه:١٨٠
٦. مصادر الأدب العباسي (منهج البحث):٥٤-٥٥ ودلالة أخرى ينظر: دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١٣٨.
٧. تاريخ الأدب العربي، بلاشير:١٢٣.
٨. دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:٢٣٢.
٩. ينظر: المرجع نفسه:٢٨.
١٠.المرجع نفسه:١٤١-١٤٣.
١١.ينظر: المرجع نفسه:١٥٥ وينظر: رواية الشعر العربي من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن السابع، د.مصطفى حسين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م:٩٢.
١٢.رواية الشعر العربي من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن السابع:٢٤٨-٢٤٩.
١٣.ينظر: دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:٣٠.
١٤.ينظر: الأدب العباسي مناهج دراسته ومصادرها، د.علي الزبيدي:٣٥.
١٥.دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١٣٦.
١٦.ينظر: دواوين الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع:١٦٠.
١٧.ينظر: دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١٥٦.
١٨.ينظر: المرجع نفسه:١٤٠.
١٩.المرجع نفسه:١٤٩.
٢٠.ينظر: رواية الشعر العربي من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن السابع:١٦٣

middle-east2017@hotmail.com
M.E.R.C
ISSN 2536-9504

ودواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١١١ و٢٣٠.

٢١.طبقات فحول الشعراء:٢٥.

٢٢.المرجع نفسه:١١١–١١٢.

٢٣.المرجع نفسه:٨٠ اعتمادًا على كتاب أشعار الخليع لعبد الستار فراج:٦.

٢٤.المرجع نفسه:٨٠.

٢٥.ينظر: دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:٨٤.

٢٦.المرجع نفسه:٨٠–٨١.

٢٧.عيار الشعر، ابن طباطبا:١٠.

٢٨.ينظر: دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١٧١

٢٩.المرجع نفسه:٢٠ و٨١.

٣٠.الأدب العباسي مناهج دراسته ومصادرها:٣٠.

٣١.ينظر: دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:٩ وينظر: الأدب العباسي مناهج دراسته ومصادرها:٣١.

٣٢. المرجع نفسه:٢٣٠–٢٣١ قصيدته الميمية بعد أن حولها إلى مدح لأبي جعفر.

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالمٌ عمـا قليـــل بسالمِ

٣٣.المرجع نفسه:٢٣٠.

٣٤.زهديات أبي نواس، د.علي الزبيدي:٢٥.

٣٥.دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:٢٢٥ وينظر: في الأدب العباسي:١٢٣ و١٤٤ و١٤٥.

٣٦.ينظر: ديوان أبي تمام:١٧.

٣٧.دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:٢٣١.

٣٨.ينظر: المرجع نفسه:١٣٠ و١٨٠.

٣٩.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين بن خلكان (ت٦٨١هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م:١/٤٢٢.

٤٠.دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١٢٠.

٤١.ينظر: المرجع نفسه:٩٩.

٤٢.المرجع نفسه:٢٢٧ وينظر كذلك: في الأدب العباسي، د.علي الزبيدي:٨٠–٨١.

٤٣. ينظر: المرجع نفسه:٢٣٧ اعتمادًا على ديوان أبي نواس وكتاب ابن منظور.

٤٤.ديوان أبي تمام:١٠.

٤٥.الامتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي (ت٤٠٠هـ)، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ:١٩.

٤٦.النقد الأدبي القديم محكمة، د.علي الزبيدي:٢٤.

٤٧.ينظر: ديوان أبي تمام:٨.

٤٨.دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي:١٦٢.

٤٩.ينظر: المرجع نفسه:١٨٧-١٨٨ و١٨٤ وكدليل على فعل النقاد باختيار الأشعار ينظر: ١٧١.

٥٠.النقد الأدبي القديم محكمة:٢٢.

٥١.ابن الأثير وأدباء عصره:٨.

٥٢.ينظر: زهديات أبي نواس:٥.

٥٣.دواوين الشعر العباسي:٥٠٧ (مجلة).

٥٤.المرجع نفسه:٥٠٧ (مجلة).

٥٥.أصداء الغزو البرتغالي على أدب الخليج العربي:٢١.

٥٦.ينظر: دواوين الشعر العباسي:٥٢٢ (مجلة).

٥٧.ينظر: الأدب العباسي مناهج دراسته ومصادرها:٣٠.

middle-east2017@hotmail.com
M.E.R.C
ISSN 2536-9504

المصادر والمراجع

١. ابن الأثير وأدباء عصره، د. علي الزبيدي، مخطوطة.
٢. الأدب العباسي مناهج دراسته ومصادرها، د.علي الزبيدي، مجموعة محاضرات القاها على طلبة الدراسات العليا عام ١٩٨٢–١٩٨٣م.
٣. أصداء الغزو البرتغالي على أدب الخليج العربي، د. علي الزبيدي، مخطوطة.
٤. الامتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي (ت٤٠٠هـ)، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
٥. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ.
٦. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، شوقي ضيف، مط المعارف، الاسكندرية، (د.ت).
٧. تاريخ الأدب العربي، بلاشير، ترجمة: ابراهيم الكيلاني، ط١، دار الفكر المعاصر، ك١٩٩٨/٢م.
٨. دواوين الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع، د. علي الزبيدي، مجلة الآداب، العدد٩، القسم الاول، مط الحكومة، بغداد–العراق، ١٩٦٦م.
٩. دواوين الشعر العباسي، د.علي الزبيدي، مط دار الاديب، عمان، (د.ت).
١٠.ديوان أبي تمام، د. علي الزبيدي، مجلة البلاغ، العدد٩، السنة الثالثة، مط المعارف، بغداد ١٩٧٢م.
١١.رواية الشعر العربي من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن السابع، د.مصطفى حسين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م.
١٢.زهديات أبي نواس، د.علي الزبيدي، مط كوستاتسوماس وشركاه، القاهرة، ١٩٥٩م.
١٣.طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي ت٢٣١هـ، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة (د.ت).
١٤.عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي ت٣٢٢هـ، تح: عبد العزيز بن ناصر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
١٥.في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي، مط دار الاديب، عمان (د.ت).
١٦.مصادر الأدب العباسي (منهج البحث)، د. علي الزبيدي، مجلة كلية الاداب، العدد٨، مط الحكومة، بغداد–العراق، ١٩٦٥م.
١٧.النقد الأدبي القديم محكمة، د.علي الزبيدي، مجلة البيان الكويتية، العدد١٢٢، مايو/١٩٧٦م.
١٨.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين بن خليكان البرمكي الاربلي(ت٦٨١هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م.